صورةُ الشعائر الحسينيّة في أدب الرّحلات الحديث

قراءةٌ مقارنة في نماذج مختارة

د. علي مجيد البديري*

تمهيد

تُعدّ الشعائر الحسينية وسيلةً من وسائل إحياء ذكرى واقعة عاشوراء التي تجمع بين بُعدي الذكرى: (البعد العاطفي) عبر مظاهر الحزن والأسى، بوصفها ترتبط بأحداثٍ مؤلمة تمثلت في ما جرى على الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، من قتل وتمثيل وسبي وانتهاك حرمة، و(البعد النهضوي) من خلال تجسيد المضامين العقدية والأخلاقية الكبرى لدروس النهضة الحسينية، بوصفها نهضة إصلاح وتغيير في الأُمّة المنكوبة بانحرافها عن الدين المحمدي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

وتكتسب طبيعة الشعائر خصوصية دقيقة في كل مجتمع بما يتناسب والسياق الثقافي فيه، وهو ما يعني وجود اختلاف ربما يكون طفيفاً أو كبيراً في بعض الممارسات التي تتعلّق بالإحياء.

إنّ مستوى حضور البعدين المذكورين يتفاوت في الصورة المنعكسة على مرآة وعي الشخص المصوِّر لهذه الشعائر، سواء أكان الناظر عربياً مسلماً أم أجنبياً من ثقافة أُخرى وديانة مختلفة؛ لارتباط ذلك بطبيعة مرجعيات الصورة ومصادرها أولاً، وبمكوناتها والغاية من تشكيلها ثانياً، وهو ما سيؤدي بالنتيجة إلى اختلاف نسبي ما بين الصور المتعددة لمنظور واحد.

---

* دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة البصرة ـ كلية الآداب.

مـن هنا؛ كانت الصور بشـكل عام ـ وصورة الشـعائر الحسـينية التي تحتشـد بها نصـوص الرحلات، وهي موضوع الدراسـة بشـكلٍ خاص ـ متنوعـةً ذاتَ ملامح مختلفـة، على الرغم مـن أنّ الرحلة تُعدّ في وجهٍ من وجوهها «**حلقة رائعة ومثيرة من المنظومة الإلهية التي تشـمل الكون، وتوجِّه أنسـاقه البشرية والطبيعية لتحقيق المزيد من محاولات اكتشاف الذات الإنسانية، واختراق حاجز المسافات الطبيعية؛ لاكتشاف الحياة على الأكوان المختلفة**»[1]. وهي أيضاً تُعدّ جنسـاً أدبياً له من الصفات والخصائص ما يكفـي لتمييزه من الأجناس الأدبية، بوصفه خطاباً مخصوصاً له منطقه الذاتي وبناؤه ومكوّناته وعناصره، ويسـعى إلى الجمع بين الإفادة والمعرفة والاكتشـاف، والإمتاع بما يُرصد عبر طبيعة الصور وأُسـلوب تشـكيلها؛ الأمر الذي يجعل الرحّالة متقمّصاً شـخصية السـارد أو القاص[2]، ولا يخلو الأمر أحياناً من أن تقع الصورة المرسـومة لثقافة ما في النمطية، متأثرة بأُنموذج قديم ما، أو موجهة بفعل موقفٍ سابق، ولها مع ذلك أهمية معرفية، فهي تُمثّل في نهاية الأمر مكوّناً ضمن نسقٍ ثقافي معين.

إنّ حضـور الذات الناظـرة في أدب الرحلات حضورٌ فاعل، سـواء أكان ظاهراً أم خفيـاً، مـن خلال مؤشرات يحملهـا النص، تدل عـلى ثقافة هذه الـذات ورؤيتها وموقفهـا، فضلاً عن نفسـيتها؛ ولـذا يقترب أدب الرحلات أحياناً من أدب السـيرة الذاتيـة، وفي الوقـت عينه يحافـظ على خصوصيته بوصفه نصاً مكتشِـفاً، واسـتجابة مثقـف لأثـرٍ حيـاتي تُجسـد موقفاً ورؤيـة خاصة بـه. وأعتقد أن في ذلـك خصوصية الرحلة بوصفها نصاً ثقافياً يقف في منطقة تلتقي عندها أنواع أدبية مختلفة.

ومـن هنـا؛ كان (فولتـير) ـ مثلاً ـ في رحلتـه إلى إنجلترا غير معنـيٍّ بمظاهر الفقر والانقسـامات الطائفية، وتقلّبات الأسـعار، وغيرها من الأُمور الحياتية فيها، وجاء

(١) قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي: ص٢٢.

(٢) اُنظر: العلوي، سعيد بن سعيد، أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة: ص١٤.

وصفـه حول النظم النيابية والقوانين الخاصة بحقوق المواطن بشـكل خاص، وكان الموجّه في ذلك هو رغبته في أن ينقل للقارئ الفرنسي صورةً جديدة عن أحوال بلدان مجاورة يعيش فيها الإنسـان حيـاة مغايرة، تختلف عما يـراه الفرنسي في الحكم الملكي الفرنـسي المسـتبد من كونه أمراً لا بديل له، وناموسـاً من نواميـس الطبيعة الثابتة[1]، وهو ما يعني بروز موجّهٍ آخر قد يشـترك في تحديد مسـار الصورة المنقولة أو يؤثر في طبيعة مكوّناتها، وأُسلوب تشكيلها.

وفي ضوء ذلك، تسـعى هـذه القراءة إلى معاينة أنماط الصور المتشـكّلة للشـعائر الحسـينية في نصـوص الرحّالة، وفحـص مكوناتها، والكشـف عـن موجهاتها، عبر نماذج حديثة من هذا الأدب.

١ـ الأنا: ناظراً ومنظوراً إليه

صورة الشعائر في رحلتين عربيتين

لا شـك في أن قدرة أدب الرحلة في لفت انتباه المتلقي ـ وتحقيق مسـاحة واسـعة من التلقي ـ متعلقة بطرفين:

الأوّل: المكان الذي يكتشفه الرحّالة، أو يصف انطباعاته عنه.

الثاني: الرحّالة نفسـه، إذ يكون المكان المجهول أوفر حظاً في إثارة فضول القارئ للتعـرّف عليـه أكثر من المكان المعـروف، وقد يكـون القارئ شـغوفاً بمعرفة طبيعة الاكتشـاف الأول للمكان المعروف، ومسـتوى وعي الإنسـان آنذاك به، وهنا تكون الرحـلات القديمة التي قام بها مستكشـفو الأمكنة والثقافـات موضعَ عناية القارئ وضالته التي يبحث عنها. من جانب آخر، يمكن أن يكون لشخصية الرحّالة وأهميته دورٌ فاعـلٌ في جـذب القرّاء إليـه، حينما يتعلّق الأمر برحلـة حديثة تحققت في العصر

(١) أُنظر: وهبة، مجدي، الأدب المقارن ومطالعات أُخرى: ص٢٦.

الحالي، بعد هذا التطور الكبير في التواصل ما بين الثقافات والحضارات المختلفة بفضل وسائل الاتصال الحديثة، فلم تُعدّ الأمكنة ـ بوصفها شواخص مادية من تضاريس وعمران وغيرها ـ موضع عناية الإنسان المعاصر، فهو منشغل الآن بالتعرف على الثقافات بما تشتمل عليه من ممارسات عبادية، وتقاليد وأعراف، وغيرها مما يتعلّق بحياة الإنسان الخاصة في بيئته، ومدى اختلافها أو اتفاقها مع ما يقابلها في ثقافات أُخرى، وأصبح انشغال القارئ بكيفية قراءة رحّالة ما لمكان معروف أكثر من محاولة التعرف على المكان نفسه؛ ولذا يختار الرحّالة عنواناً لرحلته يحمل اسمه الصريح، ولا يكتفي فيه بذكر المكان، وقد تتضافر أهمية الطرفين (المكان والرحّالة) في تحقيق الاستجابة المنشودة.

من هنا؛ تأتي ضرورة دراسة العنوان في أيّة قراءة تتناول جانباً ما في أدب الرحلات، فهو يرتبط ارتباطاً كبيراً وهاماً باسم الكاتب، ولا يمكن الفصل بين عنوان الرحلة وكاتبها، فبالكاتب يتحقق قدر من خصوصية النص، فضلاً عن أن هذا الارتباط يعزّز من وظائف العنوان العديدة، كالوظيفة التعيينية التي تختص بتحديد اسم الكتاب وتعيُّن نوعه، والوظيفة الوصفية التي تحدد مضمون النص وغيرها، ويتفاوت مستوى حضور كل وظيفة من هذه الوظائف في العنوان، فقد تهيمن وظيفة ما وتتراجع أُخرى، وقد تجتمع جميعها مؤثرة في المتلقي، وتنفرد وظيفة واحدة منها في توجيه قراءته ولفت عنايته أكثر من غيرها[1].

الرحلة الأُولى

يتحقق في عنوان كتاب السيّد محسن الأمين (رحلات السيّد محسن الأمين) ـ الذي نختاره أُنموذجاً ـ تعيين صفة النص صراحة، وهو يتكئ في تحقيق جاذبيته على اسم المنشئ لا المكان، ولعل القارئ المتعجّل لا يرى فائدة كبيرة في البحث عن ملامح

(١) أُنظر: بلعابد، عبد الحق، عتبات: ص٧٣ وما بعدها.

صورة الشعائر الحسينية في رحلة عالم وفقيه شيعي؛ بحجة أنه لن يقول غير الجميل من الكلام والوصف.

غير أن القراءة المتأنية التي تربط ما بين الصورة وموجّهاتها في وعي الرحّالة، تكشف عن فرادة في النقل والطرح، فتحت عنوان (تكايا الإيرانيين في مصر وإقامة عزاء الحسين عليه السلام) يذكر السيّد الأمين في الرحلة الحجازية الثانية ما يأتي: «**للإيرانيين في القاهرة تكيتان: إحداهما للفرس، والأُخرى للترك، يُقام فيهما عزاء سيّد الشهداء في أيام عاشوراء، ويُبذل الطعام الوافر كل ليلة، ويحضر من المصريين وغيرهم حتّى الإفرنج الجم الغفير، وفيهم من أهل العلم والفضل عدد كثير. ومن المؤسف أن خطباء وقرّاء ذلك المحفل العظيم ليست فيهم الكفاءة لذلك المنصب الجليل، بل سُلّمت تلك الوظائف إلى غير أهلها، ولو توفّرت فيهم الأهلية لاغتنموا أعظم فرصة للدعاية إلى الدين الإسلامي، ومذهب أئمة أهل البيت الطاهر، ونشر فضائلهم التي اختصوا بها عن سائر الخلق... ولكنهم ـ لعدم كفاءتهم ـ قد أضاعوا تلك الفرصة الثمينة أعواماً كثيرة، بل ربما كانت نتيجتها على العكس**»[1].

فالوصف مقرون بموقف نقدي وإصلاحي، يُعلّق فيه السيّد الأمين على طبيعة المجالس التي يقوم بها الخطباء، ويسجّل بعض السلبيات المتعلقة بمهارات الخطباء وكفاءتهم، مُلفتاً إلى أهمية المنبر الحسيني في نشر فضائل أهل البيت عليهم السلام، وبيان الدين المحمدي الأصيل. ويمكن أن نَعُدّ هذا التعليق نصاً موازياً لنص الرحلة، يشكّل من خلال تضافره معها ملامح الصورة، ويثري دلالاتها. وليس بجديد على السيّد الأمين مثل هذا الكلام؛ فقد عرفت عنه دعوته إلى إصلاح كثير من المظاهر والشعائر وتهذيبها في أكثر من مناسبة ومكان.

إنّ من الملاحظ على شعائر إحياء ذكرى عاشوراء أنها تتصف بالعفوية والارتجال على الرغم من وجود خطوط عامة تضبطها؛ وذلك بسبب عدم تقييد المشرّع لها،

(١) الأمين، محسن، رحلات السيّد محسن الأمين: ص٦٢ـ٦٣.

ولأجل الحفاظ على عدم وقوعها تحت هيمنة سلطة سياسية أو حكومية إلّا في حالات مستثناة، وهذا ما نتج عنه خضوع إرادة الجهات الرسمية في لحظة ما تحت ضغط إرادة الجمهور ورغبته وأُسلوبه التعبيري في الإحياء[1].

ويستدعي مثل هذا الأمر أن تكون أعين العلماء قريبة من رصد هذه الشعائر ومراقبتها، ووضع حدود لها تنسجم وقدسية الهدف الذي سعت النهضة الحسينية لتحقيقه؛ لذا نجد صوت السيّد الأمين ـ بوصفه عالماً مصلحاً ـ يهيمن على نقله بوصفه رحّالة هنا، فيتابع مستطرداً في التعليق على المشهد المصوّر، فيذكر وجود شخص من فضلاء دمشق، ممن تكفل ببذل المجهود في إقامة العزاء على الطريقة التي توخاها السيّد، قاصداً بذلك نشاط المدرسة المحسنية بدمشق، فقام بتعليم القرّاء وتدريبهم، وتأليف الكتب، واختلفت الحال إثر ذلك، فصار يُجنى من إقامة هذه المجالس الفوائد العظمى والمنافع الكبرى. ويرى السيّد الأمين في ذلك مناسبة لعرض رأيه والتفصيل فيه، فمن أهم الأُمور التي يجب إحرازها في تأهيل الخطباء إيجاد مدارس تُعنى بهذا الشأن، وتحرص على[2]:

١ـ أن يتعلّم قرّاء التعزية النحو والصرف، ويحسنوا الإفادة من كتب اللغة.

٢ـ التمرّن على الإلقاء، ومراعاة الكلام المناسب للمقامات المختلفة.

٣ـ حفظ الأحاديث والأخبار الصحيحة والقصائد الجيدة، وتجنُّب الأحاديث المكذوبة والشعر الركيك.

لا شك في أن المعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوّره الأديب تجعل الصورة التي يرسمها في أدبه غنية ودقيقة وتفصيلية، وذلك خلافاً لصورة يقدمها أديب لشعب أجنبي لا يعرفه حق المعرفة، وأن الأديب الذي يصوّر مجتمعه هو ابن ذلك المجتمع، وهو مرتبط به مادياً واجتماعياً ونفسياً وأخلاقياً[3]؛ الأمر الذي يجعل

(١) أُنظر: خازم، الشيخ علي، عاشوراء بين الحياة والإحياء: ص٨٣ـ٨٤.

(٢) أُنظر: الأمين، محسن، رحلات السيّد محسن الأمين: ص٦٣.

(٣) أُنظر: باجو، دانيال هنري، الأدب العام والمقارن، ترجمة: غسان السيد.

من الموقف طاغياً ومهيمناً على مكوّنات الصورة الأُخرى، فهي تهدف إلى قراءة الصورة وتقييمها فضلاً عن نقلها.

من هنا؛ كانت آراء الرحّالة السيّد الأمين تندرج ضمن منهجه الحياتي في الإصلاح والوعظ والإرشاد، ولا تنفصل عنها مطلقاً، وكان شغله الشاغل أن يُعِدّ جيلاً جديداً متنوّراً بالصحيح من المعارف، فلم يقتصر في سبيل تحقيق ذلك على الوعظ والتنبيه، بل عمد إلى تأليف الكتب المساعدة على بيان ذلك، وتحديد نهجه، «**فتوجّه إلى تأليف كتب أدبية وأخلاقية مدرسية، وتأليف كتب خاصة بتأريخ سيرة الحسين عليه السلام وعرضها عرضاً مجرداً من الشوائب والأكاذيب؛ لاتخاذها مصدراً لخطباء المنابر الحسينية**»[1]، ويُعَدّ كتابه (المجالس السَّنِية في مناقب ومصائب النبيّ والعترة النبوية) منهجاً عملياً للخطباء وقرّاء المآتم؛ بوصفها من أبرز الشعائر الحسينية، وأكثرها فاعلية وأهمية وتأثيراً في المجتمعات. فضلاً عما تضمنه كتابه (إقناع اللائم على إقامة المآتم) من آراء وأفكار تُعَدّ متمِّمةً لما تناوله في كتابه السابق، فيحدّد ما يشتمل عليه العزاء من شعائر هي: البكاء، وإظهار الأسى على الإمام الحسين عليه السلام، وإنشاد شعر الرثاء، وسرد قصة استشهاده، وتوضيح أخلاقه ومناقبه، والحث على اتخاذها نبراساً والنهل منها، وإطعام الطعام وإقامة مجالس العزاء، وكلها مشروطة بعدم تجاوزها ما هو مباح، وعدم الوقوع في المحرّم[2].

لقد بدت الأنا الناظرة متوحّدة مع المنظور إليه، فهي إن لم تكوّن معه كلاً واحداً، فإنها جزءٌ لا يتجزأ منه، فصورة الشعائر الحسينية في رحلة السيّد الأمين لم تكن مجرد صورة منقولة بواسطة عين منتمية لواقع الصورة نفسه، بل كانت مؤطّرة بقراءة موضوعية واعية لها؛ ومن هنا اكتسبت أهميتها في كتب الرحلات، وبالنتيجة فقد مثَّلتْ صورة الشعائر الخاصة بالرحّالة الناظر، ولا شك في أنها تختلف عن أي صورة أُخرى للشعائر لدى رحّالة آخر.

(١) الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج١٠، ص٣٧٨، مقالة أ. جعفر الخليلي.
(٢) اُنظر: الأمين، محسن، إقناع اللائم على إقامة المآتم: ص٢.

الرحلة الثانية

من جانب آخر، يمكن أن نقرأ ـ من خلال نموذج ثانٍ ـ صورة للشعائر الحسينية تكتفي بالنقل، وكأن همّها الاكتشاف من غير تعليق دال على موقف أو رؤية ما، إذ يعمد محمد ثابت المصري مؤلّف كتاب (العالم كما رأيته جولة في ربوع الشرق الأدنى بين مصر وأفغانستان)، إلى وصف الشعائر الحسينية في مدينة مشهد الإيرانية بطريقة يحافظ فيها على مسافته الفاصلة عما يرى، فيقول: «**أما شهرا محرم وصفر، فأيام حداد، لا يُدار فيها لهو ولا موسيقى، ويحيون لياليها بجلسات الحداد، يستمعون لقصص علي والحسين وهم يبكون. وغالب البيوت تراعي ذلك ليلة الجمعة من كل أُسبوع حتّى في غير هذين الشهرين، وفي يوم عاشوراء ـ العاشر من المحرم ـ تُقام حفلات في البلاد كلّها لمأساة الحسين**»[1].

ويستطرد الكاتب فيقول: «**خرجت من حرم الإمام الرضا إلى الفناء، وإذا في كل ركن من أركانه عالم ـ خطيب ـ يرتقي منبراً وحوله خلق كثير جلوس على الأرض في وجوم وشبه ذهول، وهو يقص عليهم أنباء علي والحسن والحسين والأُسرة الشريفة كلّها، وجميعهم يبكون، وكلّما أشار في قوله إلى الفاجعة صاحوا عالياً، ولطموا جباههم وخدودهم في قرقعة مؤلمة، ومنهم الطفل، والمراهق، والسيّد، والعجوز، والكهل الفاني، والمثقف، والأُمي الجاهل، وكنت أعجب لسيل دموعهم وبكائهم المر. وذلك الوعظ وقراءة المقتل يظل طوال اليوم في جميع أركان الأفنية...**»[2].

يبدو أنّ الرحّالة مندهش مما يرى، وكأنه جاهل تماماً بواقع الحياة الدينية في البلدان المسلمة الشيعية، ولم يسمع به أو يقرأ عنه شيئاً؛ الأمر الذي يعدُّ غريباً جداً من رجل يعمل مدرّساً اشتغل بالتعليم في بعض المدارس الثانوية بمصر، ودرَّس العلوم الاجتماعية في إحدى الجامعات المصرية، واعتاد القيام برحلة إلى بلد ما في صيف كل سنة!

(١) ثابت، محمد، العالم كما رأيته (جولة في ربوع الشرق الأدنى بين مصر وأفغانستان): ص٢١٠.
(٢) المصدر السابق: ص٢١٣.

أمـا صورة الشـعائر التـي ينقلها، فتبـدو بدورها سـطحية، خالية مـن أيّة محاولة للدخـول في إطارهـا، فلا نشـعر به كائناً داخـل ما ينقل، على الرغم مـن أنه يُعبّر عن مشاعره أحياناً، بمثل قوله: «**كنت أعجب...**».

لا شـك في أن ترتيب الصور المنقولة في نص الرحلة يخضع لهندسـة الكتابة التي يضعها الكاتب الرحّالة لنصّه؛ إذ قد تقف ملامح بعض الصور عند التسجيل الأوّلي لظاهـرة أو مشـهد، وتتجاوز صور لاحقة هذه الحدود لتمثّـل وعياً أكثر عمقاً بأبعاد المشهد، عبر إعادة تشكيله وإنتاجه بطريقة دالة وموحية.

ومـا نلاحظه في ملامـح الصورة هنا: أنّ محمد ثابت اعتمد في تشـكيلها على جمل متسارعة، تنسجم مع جو الغرابة التي يريد أن يثيرها لدى المتلقي، وإذا ما قرأناها في ضوء الصور المشـابهة لها في بيئات شيعية أُخرى، أدركنا حضور فعل محرِّض وموِّجه يقـف خلف هذا الوصف، وهو أمـرٌ يقتل النص، ويجرّد الرحلة من فائدتها المرجوّة، بوصفهـا نصـاً ثقافياً يُعرِّف، ويُعلِّـم، ويُمتِّع. فكثير من هذه الصور تتضمن تشـويهاً لحقيقة المذهب الشيعي، ولا تمتّ إلى الواقع بصلة! و«**يمكن لسوء الفهم والتحريف، أن يسفرا عن انعكاس صورة مشوّهة تماماً لتقاليد مجتمع ما، وممارساته في أساطير مسلَّم بهـا لـدى مجتمع آخر؛ مما يـؤدي إلى عدم التمييز بـين ما هو خاطئ وما هـو حقيقي. كما أن العقائـد ـ وهـي تعبير عـن وجهة نظر العدو ـ تُفسَّر بشـكل دنيء ومتحيز، وحتى أن الوقائع تُبدّل، وبحسن نية؛ بهدف ملاءمة التأويل**»[1].

وإذا مـا قرأنـا طبيعة التلقي لهـذه الصورة المنقولـة في رحلة محمد ثابـت من قِبَل القرّاء، فسنجد نمطاً من التلقي يتقاطع تماماً مع ما ورد في الرحلة في أكثر من موضع ومجال، ويكفي أن نشـير إلى تمظهر من تمظهرات هذا التلقي المتمثّـل بإفراد الشـيخ عبـد الحسـين الأميني كتاباً يـردّ فيه على هذه الصور ودلالاتها أسـماه (نظرة في كتاب

(١) *Norman Daniel: Islam and the west ,the making of an Image. p.16* . نقلاً عن: عويجان، ناجي، تطوّر صورة الشرق في الأدب الإنجليزي، ترجمة: تالا صباغ: ص٢٤.

الجولة في ربوع الشرق الأوسط). ولظهور هذا التلقي ما يبرّره، إذا ما علمنا أن معظم هذه الصور المشوّهة المنقولة في الرحلة تمارس تأثيراً كبيراً في وعي المتلقي الاستهلاكي الذي يمثّل الشريحة الأكبر في مجتمع التلقي، فيستلم منها ما يعتقده معرفة واقعية، ويتبنى في ضوئها موقفاً قد يتسم بالتطرف في كثير من الأحيان.

من هنا؛ تأتي خطورة أدب الرحلة بشكل عام، وفشل الصورة المنقولة في رحلة محمد ثابت المصري، ويشير بعض الباحثين إلى إخفاق أدب الرحلات في تحقيق التقارب ما بين الثقافات المختلفة، وإقامة الجسور بين الحضارات؛ وذلك بسبب اعتماده على القص والوصف الدقيق لما يراه الرحّالة في البلدان التي يزورها، وهو أمر يتناسب مع البيئة والطبيعة والموجودات من غير الإنسان، فمعرفة الأخير لا يمكن أن تتحقق عن طريق الوصف الظاهري، بل لا بد من التفهم لعقلية الناس ومعتقداتهم ومشاعرهم[1]، وهو ما لا يتمتع به معظم كاتبي الرحلات؛ لما يتطلّبه من رويَّة ومعرفة متأنية، وبحث في أُصول الظواهر وحقائقها.

٢ـ الآخر: ناظراً

صورة الشعائر في رحلتين أجنبيتين

تكتسب الصورة أهمية مضاعفة حينما يكون الناظر منتمياً إلى ثقافة مختلفة عن ثقافة المنظور، فهي تعرّف الطرفين بعضهما إلى بعض؛ إذ لا تقتصر فائدتها على الناظر فقط، فالثقافة المنظورة بحاجة إلى معرفة كيف ينظر الآخر إليها، وسيتوقع قارئ الرحلات التي تنتمي إلى هذا النمط هيمنة الوصف والنقل على بناء الصورة، وغياب الصوت الظاهر للرحّالة؛ فحضوره سيكون على نحوٍ خفي.

غير أنّ بعض الرحلات تتحقق على نحو مغاير، يعمد فيه الرحّالة إلى قراءة أُصول المشهد ومرجعياته قبل تسجيله.

(١) أُنظر: وهبة، مجدي، الأدب المقارن ومطالعات أُخرى: ص٢٣ .

من هذه النماذج رحلة الكاتبة الإنجليزية (فريا ستارك)[1] التي تحمل عنوان (صور بغدادية)[2]، فالعنوان يوحي بأن نص الرحلة عبارة عن مجموعة من الصور، تُشكّل مشاهدات الكاتبة في مدينة بغداد، غير أنها في الواقع عبارة عن قراءة لهذه المشاهد، قبل تصويرها. تقول في فصل خصصته للتعريف بعاشوراء ومظاهر إحيائها لدى المسلمين: «**إنّ الشيعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي يحيون ذكرى الحسين ومقتله، ويعلنون الحداد عليه في عشرة محرم الأُولى كلّها**»[3]. تجعل الكاتبة من هذه الجملة مفتاحاً للدخول في تفاصيل واقعة الطف كما تنقلها كتب التاريخ الإسلامي، فتقول: «**على مسافة غير بعيدة من كربلاء جعجع الحسين إلى جهة البادية، وظل يتجوّل حتّى نزل في كربلاء، وهناك نصب مخيّمه.. بينما أحاط به أعداؤه، ومنعوا موارد الماء عنه. وما تزال تفصيلات تلك الوقائع واضحة جلية في أفكار الناس في يومنا هذا كما كانت قبل ١٢٥٧ سنة، وليس من الممكن لمن يزور هذه المدن المقدّسة أن يستفيد كثيراً من زيارته ما لم يقف على شيء من هذه القصة؛ لأنّ مأساة الحسين تتغلغل في كل شيء، حتّى تصل إلى الأُسس، وهي من القصص القليلة التي لا أستطيع قراءتها قط من دون أن ينتابني البكاء**»[4].

يتضاعف حضور النص الموازي وأهميته الذي تنشؤه الكاتبة من خلال ارتكازه ـ في قراءة مشاهد إحياء عاشوراء والشعائر الحسينية ـ على مرجعيات هذه الشعائر وأُصول واقعة الطف في كتب التاريخ أولاً، وعلى تفاعلها النفسي مع ما تنقل،

(١) فريا مادلين ستارك (١٣١٠ـ١٤١٣هـ/ ١٨٩٣ـ١٩٩٣ م) هي: رحّالة ومستشرقة بريطانية، درست اللاتينية ثم اللغة العربية والفارسية في جامعة لندن. ألّفت أكثر من عشرة عن رحلاتها للمشرق، من أهمها (وديان الحشاشين) ١٩٣٤ م، و(البوابات الجنوبية للجزيرة العربية) ١٩٣٦ م، و(جزيرة العرب) ١٩٤٥م، و(فرساوس في مهب الريح) ١٩٤٨م. أُنظر: ويكيبيديا (الموسوعة الحرة) على الرابط: https://ar.wikipedia.org/wiki/.

(٢) ستارك، فريا، صور بغدادية: ص١٤٥ـ١٥٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

وتتشكل في النهاية رؤية تمتاز بالعمق والذكاء، تستبطن بُعداً فاعلاً من أبعاد الواقعة، وهو سيرورة ارتباطها بالواقع، وتأثيرها المتجدد في النفوس، على الرغم من مرور السنوات الطويلة على وقوعها.

لم تصرّح الكاتبة بنقل هذا الرأي عن شخصٍ ما أو كتابٍ معين؛ ولذا يُعدّ رأياً جديراً بالإعجاب والعناية، أتمّتْ به الكاتبة صورة الشعائر الحسينية بطريقة يمكن أنْ نرى فيها ما حدّده منظِّرو الأدب المقارن من ملامح ضرورية للصورولوجيا أو صورة الآخر في الآداب؛ إذ تمثلت في الصورة ملامح الواقع مقرونة بالموقف من ثقافة الآخر، وحملت مزيجاً من الأفكار المنقولة أو المشخّصة والمشاعر والمواقف والأحكام من غير تشويه أو تحريف مقصود[1].

لقد أصبح واضحاً أنّ نجاحَ الرحلة مرهون بمدى تفاعل الرحّالة مع المكان الذي ينقل صورته، فكلّما كان قريباً من مجتمع المكان، محتكّاً به ومتواصلاً معه، استطاع أن يقدم صورة نابضة حية للمكان وقاطنيه، ولكل مكّون ثقافي يتصل به، ولعل ذلك يبدو جلياً في نص رحلة الرحّالة الألماني (كارستن نيبور)[2] من الحلة إلى كربلاء في كانون الأول من عام (١٧٦٥م)، الذي هو ـ أي: نص الرحلة ـ جزء من كتاب (وصف رحلات كارستن نيبور إلى الدول العربية والبلدان المجاورة)[3]، فنرى الرحّالة وسط الناس، يقيم بينهم، ويحاورهم مستمعاً لآرائهم، ويشاركهم بعض نشاطاتهم. يقول (نيبور): «**إنّ صاحبة المنزل الذي أسكنُ فيه سيّدة عجوز أرملة**

(١) أُنظر: باجو، دانيال هنري، الأدب العام والمقارن: ص١٣٤.

(٢) مستكشف ورياضياتي وعالم خرائط ألماني، عمل فلاحاً في مزرعته أول سنين حياته، ثم أظهر ميلاً لدراسة الرياضيات، وتلقى بعض الدروس في علم المساحة والخرائط. شارك نيبور في رحلة علمية أمر بها الملك فردريك الخامس ـ ملك الدنيمارك ـ سنة (١٧٦٠م)، وكان هدف الرحلة كتابة تقرير علمي واجتماعي شامل عن الجزيرة العربية وسوريا ومصر، توفِّي سنة (١٨١٥م). ويكيبيديا (الموسوعة الحرة): https://ar.wikipedia.org/wiki/.

(٣) الطعمة، عدنان جواد، وصف رحلات كارستن نيبور إلى الدول العربية والبلدان المجاورة: ج٢، ص٢٦٦ـ٢٦٩.

شـيعية، فرحت كثيراً عندما سـمعت بأني زرت قبر العريس القاسم، وهذا الشهيد كان بالنسـبة لها من الشـهداء المفضّلين عندها. وفي أثناء حديثها لي عن هذا الشـاب الشجاع كانت الدموع تسيل في عينيها، حيث قالت: إنه كان قد التزم بالعرس؛ لأنه كتب وأمضى عقد الزواج بحضور شـهود، ولكنه في يوم وليلة عرسـه استُشـهد مع الحسين والشهداء الآخرين»[1].

يحقـق الرحّالة هنا رسـم ملامح صورة حية، هو جزء منها، يعيشـها من الداخل ويشـارك شـخوصها الحياة، وبذا يكون النقل أكثر إقناعاً للقارئ، فسـيعيش الأخير برفقـة الرحّالـة؛ ليرى المشـاهد عبر عينيه، ويسـتمع لتحليله وتعليقـه الذي يتضمن موقفه، ويمتزج بمشـاعره. يقول (نيبور): «إنّ السُّـنة أيضاً يزورون الحضرة الحسـينية لأداء صلاتهـم وزيارتهـم بكل جدّيـة وزهد، والشـيعة يعملون صراخـاً وعويلاً. كنت هنـا في شـهر رجب عندمـا كان البـدر كامـلاً سـاطعاً، وكان مئات الحجـاج يفدون في ذلك الوقت من أجل أن يقضوا ليلتهم عند قبر الإمام الحسـين، ولما لم يكن لديهم تقويماً مطبوعـاً، وكانـوا غير متأكديـن من تاريخ أيـام زيارتهم، فإن أغلبيتهـم يبقون ليلتين في الحضرة والصحن؛ لكي يتأكدوا من عدم فوات مواعيد زيارتهم. رأيت هنا وبكل تقدير وإعجاب كيـف أن المؤمنين يؤدّون صلاتهم وزيارتهم، وكيف أنهم يقبلون باب المدخل الرئيـسي للحضرة الحسـينية بحماس. وفي داخل الحضرة ـ وبسـبب حزنهـم العميق على استشهاد الحسين ـ يُقبّلون أرضية الحضرة الحسينية بشوق وحماس أيضاً...

يجـب أن أعـترف بأني لم أسـمع رثـاءً أكثر من رثاء الشـيعة في هـذا الجامع (الحضرة الحسـينية)، فالناس يبكون ويصرخون، فكأنّ الحسين أبوهم المتوفَّى اليوم، وهذا الحزن لم يكن للرياء، مثل رثاء بعض النسـاء اللواتي يبكين على الميت من أجل النقود، بل حزنهم حقيقـي نابـع من القلب، بحيث إنّ عيـون الزوّار الخارجين مـن أو الداخلين إلى الجامع (الحضرة الحسينية) كلها كانت وارمة»[2].

(١) المصدر السابق: ج٢، ص٢٦٦ـ٢٦٩.
(٢) المصدر السابق.

يحافظ الرحّالة في رسم الصورة ونقلها على شدِّ القارئ إليه عبر هذا الأُسلوب السردي الشيِّق، فلم يكن شاهداً وراصداً فحسب، بل مشاركاً متفاعلاً مع الآخرين، وفي الوقت نفسه تجده معلِّقاً ومقيماً لما يرى بطريقة يشعر القارئ فيها بأن منظور الرحّالة منظور إنساني، يحترم الآخر ويتفاعل معه، ولعل للغته دوراً مضافاً في تحقيق معرفة الآخر المختلف، ومشاركته أفكاره ومشاعره، والتعاطف معه، واحترام خصوصياته. وقد جاءت صورة الشعائر الحسينية مرسومة عبر وصف دقيق، قادر على نقل مشهد متحرك، يشدّ المتلقي له، فقيمة هذا الأُسلوب متأتية من «**أنها تصوّر لنا تأثّر الكاتب بعالم جديد لم يألفه، والانطباعات التي تركها في نفسه: ناسه وحيواناته ومشاهده الطبيعية وآثاره، فهي بذلك مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة في أمكنة جديدة، وبين أُناس لم يكن لها بهم سابق عهد. فالرحلة ـ إذاً ـ ليست سوى تجربة إنسانية حيّة يتمرس بها، ويجعل التعرف إلى دقائقها، واستكناه خفاياها، فيخرج منها أكثر فهماً وأصدق ملاحظةً، وأغنى ثقافةً وأعمق تأملات**»[1].

تصبح الصورة هنا أكثر اقتراباً من تحقيق الهدف الإنساني النبيل من وراء الرحلة بوصفها استكشافاً معرفياً وفناً أدبياً؛ لأنها حرصت على منح القارئ معرفة بالآخر بطريقة تفاعلية، من غير أن تكون موجهة بشكل سابق نحو غاية ما، أو تحرف المشاهد وتشوّهها، مُضيّعة بذلك الرسالة الإنسانية لهذا الفن في التعايش والتعارف في فضاء إنساني مشترك ورحب.

الخاتمة: مقارنة الصور

لقد اقتربت النماذج المختارة من أدب الرحلة في هذه الدراسة، وهي تنقل صورة الشعائر الحسينية من الطبيعة المشار إليها بمقدار كبير، وأفادت من اتساع فضاء نصِّ الرحلة للمناقشة والتعليق، وذكر الموقف النقدي من الثقافة المنظورة؛ إذ تتيح طبيعة أدب الرحلة ـ بوصفه فضاءً استكشافياً حرّاً ـ لمؤلّفه أن يتحرك فيه بسهولة كبيرة،

(١) نجم، محمد يوسف، فن المقالة: ص١٤٤.

فبإمكانه أن يكتفي بالرصد والتعليق، وبإمكانه أن يتجاوز حدود ذلك ليدخل في المشهد المصور والمكان المستكشف عنصراً هاماً، ومشاركاً قاطنيه الحياة بكل تفصيلاتها، وراصداً من خلال ذلك الصور المختلفة للحياة، محققاً نصاً ثقافياً وأدبياً «**فيه شيء من السيرة الذاتية، وشيء من فنّ القصص، وشيء من تيار الشعور المسترسل الذي لا يخضع لقاعدة سوى وحي الساعة وتداعي المعاني**»[1].

وعلى الرغم من اتساع فضاء الكتابة أمام الكاتب الرحّالة، إلّا أنّ هذا الأمر لا يخلو من مخاطر انزلاق الكاتب في التطرف في النقل، وهو ما يشكّل مفارقة غريبة، وتفريغاً غير معقول لطبيعة الرحلة من رغبتها في معرفة الآخر ومشاركته، وتحويلها إلى أداة للتباعد والتناحر والتنافر.

لعل من الغريب أن تجد الأنا ـ وهي تقرأ نفسها، وتتعرف على شريكها المماثل ـ واقعةً في التطرّف، وموجّهة بفعل حكم سابق، وتصوّر مغلوط عن الآخر، من غير أنْ يستفيد الرحّالة من فرصة إعادة استكشاف الآخر وفهمه، وهو ما تجلّى بصورة واضحة في صورة الشعائر الحسينية لدى (محمد ثابت) في رحلته، في الوقت الذي ينجح فيه الآخر الأجنبي، محققاً نصاً ثقافياً غنياً بأبعاده الإنسانية، وقراءة ممتعة ونافعة في الوقت عينه، أدركت الأبعاد النفسية والعقدية العميقة للشعائر الحسينية، بل إننا نجدها ـ وعلى نحو متقدم كما هو في رحلة الألماني كارستن نيبور ـ تنتبه إلى الوظيفة التحفيزية لهذه الشعائر التي تدفع الإنسان إلى أن تكون الرحمة والعطف رسالته في الحياة، وتكرّه له الظلم وقمع الآخر أو استلابه.

(١) وهبة، مجدي، الأدب المقارن ومطالعات أُخرى: ص٢١.